المقياس :مضمون الخطاب الشعري القديم

المستوى:سنة أولى ماستر ،تخصص:أدب عربي قديم

الأستاذة: وهيبة لماني

التطبيق الأول:غرض المديح

كانت القصيدة المدحية في الجاهلية عبارة عن أبيات قليلة متناثرة في مطولات الشعراء المبرزين كامرئ القيس وطرفة بن العبد ،وعمرو بن كلثوم (نستثني بعض قصائد المدح الطويلة عند عمر بن قميئة ،والمثقب العبدي).وهي ترتبط ارتباطا مباشرا بحياة القبيلة ،كما أنها بعيدة عن التكسب . وقد شهدت هذه القصيدة مع أواخر العصر الجاهلي بعض التغيير .فقد أصبحت تتميز بطولها ،فهي تمتد وتتسع لأغراض متعددة ومتشعّبة تشعب الحياة الجاهلية واتساعها ،وتحكمها طائفة من القيود الفنية تحدد صورتها وتقاليدها الأساسية الكبرى،فقصيدة المدح –كما يقول ابن قتيبة- قصيدة تبدأ بمقدمة في وصف الأطلال أو الظعائن أو في الغزل ثم الرحلة فالمديح . فالشاعر يبدأ بالمقدمة بما فيها من عناصر متعددة ثم يصل إلى المدح بعد رحلة قد تطول أوتقصر ، وقد دقق شعراء الجاهلية في مقدمات قصائدهم المدحية وتنمقوا في بنائها وصياغتها (لاحظ مقدمات الغزل ،الأطلال ، الطيف ،الشيب ،والشباب ،الخمرة ....إلخ)،ومن المقدمات ينتقل الشاعر الجاهلي إلى وصف راحلته التي قادته إلى الممدوح فيتناول كل أجزاء جسمها ويصف سرعتها التي تنقله إلى الممدوح كما يصف الصحراء الواسعة التي يقطعها وهو في طريقه إلى ممدوحه ،ولا يفوته أن يصف مايلقاه في تلك الصحراء من حيوانات صحراوية وكلاب صيد ،وفي نهاية الرحلة المضنية يكون الشاعر قد وقف على أبواب ممدوحه ويرجو منه مايصبو إليه.

ولما كان للفن رسالة ينهض بأعبائها .فقد كان لابد لقصيدة المدح أن تؤدي بأي شكل رسالتها ،ولذا فقد ارتبطت قصيدة المدح ارتباطا حميميا غالبا بالقبيلة ترعى شؤونها ،وتحمل همومها وتجسد واقعها وتنطق بلسانها وتصور الحياة التي تعيشها القبائل فقد كان الشاعر ممثل قبيلته يحمل همومها إلى الممدوح علّه يجد لها حلاً، ومن هنا فقد كان الكرم من أبرز مقومات قصيدة الجاهلية لأنه كان الركن الأساسي في العادات والقيم العربية الجاهلية وكذلك تجلت القوة في قصائد المدح ،فقد تحدث الشاعر عن كرم ممدوحه وقوته مما أدى إلى ولادة موضوعات جديدة في رحاب غرض المدح كالحديث عن الخيل من خلال الحديث عن شجاعة الممدوح وقوته ،وتصوير الحروب وجيوش الممدوحين .

لقد سلكت قصيدة المدح لدى بعض الشعراء الجاهليين طريقا بعيدة عن التملق والتكسب إلى أن جاءت طائفة من الشعراء فأدخلت قصيدة المدح إلى سوق الكسب وبيع الشعر وابتعدت بها عن واقع القبيلة ومعاناتها وسخرتها لخدمة أطماعها الشخصية وجمع المال .

وبمجئ الإسلام ظلت القصيدة المدحية تقتفي المنهج الجاهلي بكل تقاليده من مقدمة وعناصر الرحلة ،وكذلك في موضوعات المدح كالكرم والشجاعة وإغاثة الملهوف (لاحظ قصائد الشعراء المخضرمين)

يمكن أن نلاحظ أيضا أن قصيدة المدح في عصر الفتوحات الإسلامية تتميز بظاهرة التخفف من المقدمات بضروبها جميعا ،والتخفف من الرحلة باستمرار ،فلا يفتتح الإسلامي الجديد مدائحه بمقدمة في الغزل أو الأطلال أو أي لون من ألوان المقدمات ،ولايرحل في هذه المدائح فيقطع الصحراء على ظهر ناقته ،أوينطلق خلف حيوان الصحراء ولكنه يشرع في المدح مباشرة .

وإذا أمعنا النظر في دواوين الشعر الإسلامي نجد أن قصيدة المدح تمتزج غالبا بالفخر والهجاء ، فالفخر ،فخر بالدين الجديد أو بالحزب ،فهو فخر متعصب لحزب من الأحزاب وكذلك الهجاء تغلب عليه الصبغة السياسية بعيدا عن الأهواء الشخصية المتعصبة .

ولعل أهم ما يميز المدح في هذه الفترة :

*مدح للمسلمين كافة ،ومدح للقيم الجديدة التي أقرها الدين الجديد.

*ابتعاد المدح غالبا عن التوسل والاستجداء فهو دفاع عن الدين الجديد ونشر رسالته (شعر حسان بن ثابت)

*انصب المدح على شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم

أما في العصر الأموي :

*الملائمة بين العناصر التقليدية الموروثة التي كان المدح القديم يعتمد عليها ،والعناصر الجديدة المستحدثة التي نفذ إليها الشعراء من خلال ظروف حياتهم الجديدة التي يحيونها (لاسيما حروب الأمويين الداخلية والخارجية ، دخول عناصر سياسية تتصل بسياسة الخلفاء والأمراءوالولاة....)

ومن مميزات المدح في العصر العباسي مايلي:

*استمرار المقدمة الطللية والغزلية في بعض قصائد الشعراء

*عودة المقطوعات الشعرية

*اندفاع الشعراء إلى التكسب بقصائدهم أدى بهم إلى الاحترافية

*غرض المدح غرض شديد الخطورة لارتباطه بالبلاط والسياسة من جهة ،وارتباطه بالأخلاق من جهة أخرى .حتّم على الشعراء أن يضعوا لكل فئة ما يناسبها من الصفات المدحية.فالخليفة يمدح بالشجاعة والكرم ....إلخ ، ولقائد الجيش والوزير ما يناسبه من الصفات

*اتساع دائرة المدح لتشمل فئات متعددة من الجتمع

*ظهور ما يسمى بالموليديات والنبويات

*استعمال الأوزان القصيرة ،رقة اللغة وبساطة الأسلوب (مع بقاء بعض القصائد التي تعبر عن دقة الأسلوب وفخامته،باعتبار أن غرض المدح مظهر من مظاهر الفخامة والجدة).مثل ما نجد في قصيدة أبي العتاهية في مدح المهدي :

أتته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها

ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها

*اختراع أوزان جديدة كقول سلم الخاسر :

موسى المَطر غيث بكر ثم انهمر ألوى المِرَر

كَم اعتَسَر ثم اتَّسر وكم قدر ثم غَفَر

عَدلُ السير باقي الأثر موسى المَطَر غيث بكر

لمَن غَبَر موسى المَطَر غيث بَكَر